

فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله

يقدم

التفسير وعلوم القرآن- دورة بصائر العلمية ٢

تفسير سورة الصف

(باللغة العربية)

لفضيلة الشيخ: محمد عطية

رابط المادة: <http://way2allah.com/khotab-item-127401.htm>

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

سورة الصف

نعيش اليوم - إن شاء الله عز وجل - مع سورة أخرى هي سورة الصف، وتسمى أيضًا سورة الحواريين فذكر فيها الصف في أولها صف المسلمين في القتال، وذكر فيها الحواريون في آخرها قال ربنا "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ" الصف: ١٤.

الصواب أن سورة الصف مدنية

وهذه السورة اختلف هل هي مكية أو مدنية ولكن الصواب أنها مدنية.

بماذا يهتم القرآن المكي والمدني؟

لأن

- القرآن المكي اهتم بأمور منها تفاصيل العقيدة ودعوة إلى الأخلاق وله ضوابط معروفة عند أهل التفسير.

وأيضًا اهتم

- القرآن المدني بأمور الجهاد وما يتعلق ببني إسرائيل وكل ما جاء من تفصيل عن بني إسرائيل؛ إنما هو في القرآن

المدني.

دلائل على أن السورة مدنية

١. والسورة بدأت بذكر القتال ثم تحدثت عن موسى مع قومه - لا مع فرعون وتحدثت بعد ذلك مع عيسى -

عليه السلام - وبينت أن لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الله - عز وجل - فيزعم أنه هو على الحق ويكفر بالله

العظيم؛ ثم أيضًا دعت المؤمنين إلى هذه التجارة مع الله رب العالمين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" الصف: ١٠ و ١١، فبدأت

بالجهاد وتوسطت بالجهاد وفي آخرها إشارة أيضاً إلى نصرته النبي ونصرة دينه وهو دعوة إلى الجهاد - أيضاً- وبينت طبعاً ثواب هذه التجارة لمن يقوم بها.

٢. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- قال: "تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله -تعالى- فلم يقم منا أحد فأرسل إلينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة.. " يعني سورة الصف وفي هذا دلالة واضحة على أنها سورة مدنية لأن عبد الله بن سلام إنما أسلم بعد الهجرة وهو من أهل المدينة.

وهذا الحديث رواه الإمام الترمذي بلفظ " قعدنا نفر من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نتذاكر أي الأعمال أحب إلى الله تعالى فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله -تعالى- لعملناها فأنزل الله -تعالى-: "سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" الصف: ١، ٢، قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-".

إذن الصواب أو الصحيح أن هذه السورة مدنية يعني نزلت بعد هجرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإن المدني هو ما نزل بعد الهجرة والمكي ما نزل قبلها.

استفتاح جميل لسورة الصف كما في سورة الحشر

استفتح الله -عز وجل- هذه السورة بما استفتح به سورة الحشر التي كانت معنا في الدرس الماضي فقال: "سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ما من شيء من مخلوقات الله إلا ويسبح بحمده في السماوات وفي الأرض مما يرى ومما لا يرى الكل يعرف ربه ويقدره حق قدره حتى قال ربنا في سورة النور: "كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ" النور: ٤١، وألهموا ذلك فهم يسبحون الله -تبارك وتعالى- والله -تبارك وتعالى- حقيق بالتسبيح وبالتنزيه وهو العزيز الحكيم؛ عزيز لا يغالب حكيم فيما شرع وقدر.

من الصفات التي يمقتها الله -عز وجل-

ثم قال ربنا -تبارك وتعالى- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" وهذا إنكار على من يعد وعداً ثم يخلفه وهذه ليست صفة المؤمنين، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ" صحيح البخاري، وفي الحديث الآخر "أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها.. " صحيح البخاري، فذكر منها إخلاف الوعد، وإخلاف الوعد صفة ذم، خلق مذموم أن يعد الإنسان ثم لا يفي. لذلك على الإنسان ألا يعد إلا بما يمكن أن يوفي به؛ فلا يعد بما فوق طاقته ولا يعد بما لا يفي به. وهذه الآية بين الله عز وجل أن هذا الأمر مما يغضب على صاحبه ويمقت ويكرهه كرهًا شديدًا هذا الفعل "كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" الصف: ٣، وروى الإمام أحمد حديثاً يبين لنا جزئية من الجزئيات التي يمكن أن تكون في حياتنا ونحن لا نلتفت إليها عن عبد الله بن عامر قال:

"أتانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بيتنا وأنا صبي فذهبت أخرج لألعب فقالت لي أُمِّي يا عبد الله: تعال أعطك. فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما تعطيه ما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرًا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة. " دعنتني أُمِّي يومًا ورسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- قاعدٌ في بيتنا فقالت ها تعال أعطيك فقال لها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ما أردت أن تعطيه قالت أعطيه تمرًا فقال لها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة " حسنه بن حجر العسقلاني.

مثال مذموم يجب أن نحذر منه

كثير من الناس قد يعد أبناءه بشيء ما إذا فعل شيئًا ما على سبيل المثال يقول له: إذا نجحت فأنا أتيك بكذا. فإذا نجح الولد أخلف الأب معه وهذا مما لا يصح فإنه -أولاً-: مخالفة شرعية، وثانيًا: يربي في الولد أيضًا هذه الصفة المذمومة ويعلمه الكذب وهذا مما لا يجوز، لذلك علمنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن هذا يكتب على صاحبه كذبة.

سبب نزول الآية

وسبب نزول الآية كما مر معنا أن الصحابة ذكروا أي الأعمال أحب إلى الله نعملها؟ فلما نزل الأمر بالجهاد صعب على بعضهم لذلك يقول الله -عز وجل- "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا" النساء: ٧٧.

وقال ربنا -أيضًا-: "وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ" محمد: ٢٠، وقال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه -: "كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله -عز وجل- دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل بها، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال؛ إيمان به لا شك فيه وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله -سبحانه وتعالى-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ".

سبب تسمية سورة الصف بهذا الاسم

وهذا واضح في أنه لا يجوز للمسلم أن يقول شيئًا أو يعد بشيء ثم لا يقوم بعد ذلك بما وعد به أو بما أخذه على نفسه، ولهذا قال -تعالى-: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرْضُوصًا" الصف: ٤، بهذه الآية سميت السورة سورة الصف وهذا إخبار من الله -تعالى- بمحبته لعباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين للأعداء مقاتلين لهم، مدافعين عن دينه؛ ليجعل الله بهم كلمته هي العليا، هؤلاء المجاهدون الله -تبارك وتعالى- يحبهم

وخاصة إذا كان على الصفة التي وصفها ربنا -تبارك وتعالى- **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"**.

ما هو البنيان المرصوص؟

البنيان المرصوص هو: الذي يصف فيه اللبنة بعضها بجوار بعض فتكون في منتهى الشدة؛ فلا يتجاوزها أحد ولا يخرقها أحد لماذا؟ لأنها من الشدة بمكان. هكذا في الحرب وكانت طبعاً الحروب أيامهم كما نعلم تحتاج إلى هذا الصف الذي يكون فيه قوة للجيش.

مَنْ الثلاثة الذين يحبهم الله

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ" ويحب ذلك في الصلاة أيضاً وهذا قد ورد أيضاً حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: "كان يبلغني عن أبي ذر حديث فكنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي أن أراك أو أن ألقاك فقال له: لله أبوك فلقد لقيت فهات، يعني هات ما عندك، فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدثكم: إن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة قال: أجل فلا أخالني أكذب على خليلي -صلى الله عليه وسلم-..."

لم يظهر الكذب إلا بعد القرون الثلاثة الأولى

ما كانوا يعرفون الكذب حقيقة إنما الكذب ظهر بعد القرون الثلاثة وإن كان في بعضهم من قبل القرون الثلاثة لكن ليس شائعاً فيهم ولم يكونوا يُعرفون بذلك ولذلك خير القرون هي القرون الثلاثة الأولى فما بالنا بصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وعيد شديد لم يكذب على النبي -صلى الله عليه وسلم-

ولذلك أنس -رضي الله عنه- لما تكلم معه أحد التابعين في حديث رواه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: **"ما كنا نكذب ولا نعرف الكذب"** وطبعاً معلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **"من كذب علي متعمداً فليبوأ مقعده من النار"**، فأولى الناس بذلك صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"..قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله -عز وجل-؟ قال: رجل غزى في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"."**

لاقي من قومه المقرّبين. وهذا فيه تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- **"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُودُونَنِي"** ، ولذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: **"رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"** صحيح البخاري، موسى طبعًا هو من أولي العزم من الرسل، **أولو العزم من الرسل خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد** -صلى الله عليهم جميعًا وسلم-، ولكنه لاقى من قومه مع أنهم مؤمنون وهم بنو إسرائيل، لكنه لاقى منهم عناءً وشدة وقد حكى الله -عز وجل- في كتابه كثيرًا من هذه المواقف، خاصة في سورة البقرة، وأيضًا في سورة المائدة وغير ذلك من السور المدنية، وها هنا يشير الله -تبارك وتعالى- إلى ما كان من أمر هؤلاء أنهم كانوا يؤذون موسى عليه السلام.

ولذلك قال ربنا -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۗ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا"** الأحزاب: ٦٩، يعني لا تؤذوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما آذى موسى من قبل من؟ الذين آمنوا لأن موسى لاقى ذلك -أيضًا- من الذين آمنوا، بنو إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى ولكنهم آذوه.

كيف برأ الله موسى -عليه السلام-؟

والإيذاء المذكور في سورة الأحزاب إن موسى -عليه السلام- كان إذا اغتسل لا يتعزى وكان بنو إسرائيل يتعرون، فأرادوا أن يخرجوا علة لذلك؛ فقالوا إن موسى: "آدر"، آدر في اللغة معناها كبير الخصية فماذا كان من موسى؟ ذهب إلى شاطئ البحر وتعزى ووضع ثيابه على حجر عند الشاطئ ودخل يغتسل فجرى الحجر بثياب موسى، طبعًا هذه آية من آيات الله -عز وجل- ليبين لهم أنهم غير صادقين فيما زعموا وأنهم بهذا آذوا موسى -عليه السلام-، فتبعه موسى وهو يقول: "ثوبي حجر، ثوبي حجر" حتى مرَّ على ملاٍ من بني إسرائيل فرأوه؛ فعلموا أنهم كانوا مخطئين، وهنا قال ربنا: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۗ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا"**، وها هنا في سورة الصف يقول الله -تبارك وتعالى-: **"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُودُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ"**، أنتم تعلمون أني رسول الله إليكم وبنو إسرائيل كانوا ينتظرونه أصلًا وهو الذي أخذهم ونجا بهم، وأنجاهم الله به، يعلمون أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم يؤذونه؟ إنما هذه صفة يهود على مرّ التاريخ.

الجزاء من جنس العمل

يقول ربنا -تبارك وتعالى-: **" فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ"** الجزء من جنس العمل " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ"، يعني أمالها إلى الحيرة وإلى عدم الإيمان الصحيح؛ فكانوا على ما هم عليه من هذا الغي وهذا الضلال -عيادًا بالله- فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان كما قال -تعالى-: **" وَنَقَلْنَا أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ نَدَّرْنَا فِي طُغْيَانِهِمْ"**

يَعْمَهُونَ" الأنعام: ١١٠، وقال -تعالى-: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ ۗ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" النساء: ١١٥، ولهذا قال الله -تعالى- في هذه الآية: "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ".

تعريف الفسق وأنواعه

الفسق: الخروج عن الطاعة، يُقال: فسقت الرطبة أي: خرجت عن قشرتها، وفسقت الفأرة يعني: خرجت من جحرها للإفساد، وكذلك من يفسق فهو يخرج عن الطاعة،

- إما يخرج عن الطاعة **بالكلية** يعني يخرج عن توحيد الله رب العالمين ويكون كافراً.
- وإما يخرج عن الطاعة **العملية** فيكون فاسقاً، ليس بكافر، الفسق قد يُطلق ويُراد به الكفر وقد يُطلق ويُراد به ما دون ذلك،

وكذلك الظلم وقد قال ربنا -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ" البقرة: ٢٥٤، فوصف الكافرين بالظلم؛ لأنه هو الظلم العظيم، وقد يأتي الظلم -أيضاً- بمعنى الكفر.

ثم انتقلت الآيات -بعد الحديث عن موسى وبيان ما كان من قومه معه وإيذائهم له- تكلمت الآيات عن عيسى -عليه السلام- وهو آخر الرسل من بني إسرائيل، وعيسى -عليه السلام- كانت بشارته التوراة كما كانت بشارة محمد -صلى الله عليه وسلم- أيضاً في التوراة. ولكن عيسى بشر بمن سيأتي بعده، وهو خاتم الأنبياء والرسل "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ" الصف: ٦، أحمد من أسماء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

أسماء الرسول -صلى الله عليه وسلم-

فقد قال -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ" صحيح البخاري، والعاقب هو الذي لا نبي بعده، فهذه من أسماء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاء التصريح باسمه في هذه السورة بأحمد "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" لأن عيسى بُعث في بني إسرائيل وهو آخر رسلهم وأنبيائهم، "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ" لماذا قال هذا؟

-ليعلموا أنه إنما جاء من عند الله وجاء مصدقاً بها ويعمل بها، ولذلك الإنجيل ليست فيه أحكام، حتى النصارى يرجعون في أحكامهم إلى التوراة ويسمونها العهد القديم، يسمونها العهد القديم.

قاعدة الضمير يعود على أقرب مذکور

" مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ "، فلما جاءهم الضمير هنا يعود على من؟

- أكثر المفسرين أن الضمير يعود على سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والذي جاء اسمه في هذه الآية أحمد؛ لأنه أقرب مذکور للضمير، والضمير يعود على أقرب مذکور إلا أن تأتي قرينة أو دلالة أن البعيد هو المراد؛ فمثلاً قول الله -تبارك وتعالى- في سورة الإسراء: "وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ" الإسراء: ٢، "وَجَعَلْنَاهُ"

الهاء هنا تعود على موسى أم تعود على الكتاب؟

- الراجع أنها تعود على الكتاب؛ لأن هذا الكتاب هو الذي كان هدىً لبني إسرائيل -وإن كان موسى أيضاً هدىً لبني إسرائيل، وهو الذي جاء بالكتاب؛ فلو قلنا أنها تعود على موسى بقرينة أنه هو الذي جاء بالكتاب فهذا أيضاً صحيح، لكن أن الضمير يعود على أقرب مذکور فالمراد هنا أن التوراة جعلها الله هدىً لبني إسرائيل لأن موسى - عليه السلام- كان له عمر، انقضى عمره وبقيت التوراة هي التي تكون هذا الهدى لبني إسرائيل؛ فالضمير يعود على أقرب مذکور.

ولذلك هنا "فَلَمَّا جَاءَهُمْ" يعني رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- "بِالْبَيِّنَاتِ" يعني على صدقه سواء كانت المعجزات أو البيئات التي جاء بها بالكتاب، يعني من القرآن وحكاية قصصهم مع رسولهم موسى، ومع رسولهم عيسى -عليه السلام-، "فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" كما قالت العرب والمشركون في رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

النبى دعوة إبراهيم وبشرى عيسى

يقول النبى -صلى الله عليه وسلم-: أنا "دعوةً أبى إبراهيم وبشرى عيسى" إسناده حسن، وبشرى أخى عيسى، يعني ما كان في هذه الآيات من دعوة إبراهيم كقول الله -عز وجل- في سورة البقرة: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ" البقرة: ١٢٩، فهذه دعوة إبراهيم؛ ولذلك نقول الدعاء مهم في حياة الناس فإنه يغير الله -عز وجل- به الكون فدعوة إبراهيم استجابها الله وكان محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي غير الله به الكون.

إيمان النجاشي برسول الله وشهادته على صدق رسالته

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: "بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى النجاشي" إسناده حسن، معلوم أن هذا كان في الهجرة الأولى للصحابة لما كثر إيذاء قريش لهم، قال: "فَأَتَوْا النجاشي وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهديةً فلما دخلا على النجاشي سجداً له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله" إسناده حسن، يعني واحد عن يمينه وواحد عن شماله، "ثم قالوا له: إِنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عَمَّنَا نَزَلُوا أَرْضَكَ وَرَغِبُوا عَنَّا وَعَنْ مِلَّتِنَا قَالَ:

فأين هم؟ قال هم في أرضك فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم" إسناده حسن، يعني جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- "فَاتَّبَعُوهُ فَسَلَّمَ ولم يسجد فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك قال: إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قال: وما ذاك؟ قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: فَإِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ" إسناده حسن

لماذا؟ اعتقادهم أن النصرى جميعاً يقولون في عيسى غير ما جاء به القرآن في سورة مريم وهي السورة المكية في ذلك الوقت وهم عندهم خبر بعقيدة هؤلاء أنهم يقولون عيسى بن الله، يقولون هو ثالث ثلاثة فهذا أراد أن يستفزه بهذه المقولة فقال: "فإنهم يُخالفونك في عيسى بن مريم"

فقال النجاشي: "قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسه بشراً ولم يفرضها ولدٌ قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا" إسناده حسن، يعني هذا العود، العود طبعاً مستقيم فالكلام مستقيم كما نقول في عيسى -عليه السلام- وكان رجلاً صالحاً موحداً، لم يكن على ملة هؤلاء الذين يقولون أن عيسى ابن الله ولا أنه ثالث ثلاثة.

ثم قال لهم: "مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله فإنه الذي نجد في الإنجيل وإنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم أنزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيتته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فرددت إليهما ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا" إسناده حسن، يعني تعجل في عودته لأنهم سمعوا أن قريشاً أسلمت فعاد بعضهم فلما وجدوا الأمر أشد رجعوا وهذه تسمى بهجرة الحبشة الثانية ولكن عبد الله بن مسعود بقي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

يقول: "وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم استغفر له حين بلغه موته" إسناده حسن، طبعاً هذا كلام صحيح بأنه -صلى الله عليه وسلم- صلى الله عليه وسلم -صلى عليه صلاة الغائب كما في الصحيحين، لما مات النجاشي أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وحيًا بأنه مات فصفهم وقال: "إنَّ أَخَا لَكُمْ قَدْ مَاتَ. فقوموا فصلوا عليه. يعني النجاشي. وفي رواية زهير: إنَّ أَخَاكُمْ" صحيح مسلم، وصلى عليه -صلى الله عليه وسلم-، تعرفون أن صلاة الجنائز إنما هي دعاء واستغفار للميت.

فهذا بيان بما كان من أمر النجاشي وهو نصراني وملك وكان بذلك شهادة منه على صدق ما كان في الإنجيل من أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أحمد المبشر به في الإنجيل والذي جاء به عيسى -عليه السلام- **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ..** يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- **قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** الصف: ٦.

لا أحد أظلم ممن يعبد غير الله

"وَمَنْ أَظْلَمُ..". الصف: ٧، إذا رأيت هذه العبارة "وَمَنْ أَظْلَمُ.." فمعناها لا أحد أظلم، لا أحد أظلم ممن يكون هذه صفته "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ" الصف: ٧، يعني يدعوه الرسول والمؤمنون إلى التوحيد وإلى الإسلام وهو يعتقد مع الله -تبارك وتعالى- إلهاً آخر أو يعبد غير الله -سبحانه جل في علاه- "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" الصف: ٧، هؤلاء الظالمون الذين هم متعنتون فيما ذهبوا إليه ولا يقبلون الحق هؤلاء لا يهديهم الله -تبارك وتعالى-، الله أعلم بمن يُهدى فيهديه، وأعلم بمن يشقى فيشقيه سبحانه -جل في علاه-.

لا أحد يستطيع أن يطفئ نور الحق

"يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" الصف: ٨، يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، هل يمكن لأحد ولو اجتمع الناس جميعاً ولو اجتمع الخلق جميعاً من الجن والإنس أن يطفئوا شعاع الشمس "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ.." يعني بكلماتهم هذه "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" الصف: ٨، الله لا يُغالب ولا يُعانَد هو سبحانه العزيز الجبار، هو سبحانه المقتدر، "أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ؟" الزمر: ٣٧، بلى، الله سبحانه وتعالى لا يقدر أحد من الذين خلقهم على معاداته ولا على محاربتة، "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" الصف: ٨.

سيظهر دين الإسلام رغم أنف كارهيته

"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" الصف: ٩، "الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ" يعني محمد -صلى الله عليه وسلم- "بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ" بهذا الدين الإسلام "لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" فدين الإسلام نسخ ما قبله فهو آخر عهد الله -عز وجل- لعباده "وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" يعني ولو كره هؤلاء الذين عادوا وأشركوا فإن هذا الدين سيظهر وقد أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا أن هذا الدين سيدخل كل بيت "بِعِزِّ عَزِيزٍ وَذُلِّ ذَلِيلٍ" إسناده صحيح.

التجارة الربحة مع الله

قال الله -عز وجل-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ" الصف: ١٠ : ١١، هذه هي التجارة مع الله -عز وجل- الإيمان بالله وتوحيده وإفراده سبحانه بالعبادة وحده والإيمان برسوله -صلى الله عليه وسلم- واتباعه وطاعته ثم الجهاد في سبيل الله -عز وجل- بالنفس والمال، هذه هي التجارة العظيمة التي لا تبور هي محصلة المقصود ومزيلة للمحذور، إن كان الناس في تجاراتهم في الدنيا يحسبون ويعدون ويجهزون ويخططون فهل لنا من تجارة مع الله مثل ذلك من التنافس عليها "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" المطففين: ٢٦.

ما هي نتيجة التجارة الرابحة مع الله؟

ما هو نتيجة ذلك؟

١. مغفرة الذنوب والذلات

"يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" الصف: ١٢ إن فعلتم ما أمركم الله به وذلكم عليه غفر لكم الزلات.

٢. الفوز بالجنات والمسكن الطيبات

وأدخلكم الجنات والمسكن الطيبات والدرجات العاليات "وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ" الصف: ١٢، جنات عدن يعني جنات إقامة يعني لا مخرج منها ولا محيد عنها، "ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" الصف: ١٢، لاشك أن هذا هو الفوز العظيم والله -تبارك وتعالى- وصف الفوز هنا بالعظيم؛ لأنه لا أعظم فوزًا من هذا ونسأل الله تبارك وتعالى - أن يجعلنا من أهل ذلك.

٣. نصر من الله وفتح قريب

ومع ذلك فإن الله -تبارك وتعالى- وعد أيضًا بأمرٍ هو مما يحبه الناس "وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا" الصف: ١٣، وما هي؟ "نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ" الصف: ١٣، ثم قال ربنا -تبارك وتعالى-: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" الصف: ١٣، "نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ" يعني إن قاتلتم في سبيله ونصرتهم دينه تكفل الله -عز وجل- بنصركم كما قال -تبارك وتعالى- في علاه-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" محمد: ٧، وهذا الخير الذي وعد الله -تبارك وتعالى- من النصر والفتح القريب موصول أيضًا بالفوز في الآخرة ولذلك قال ربنا -سبحانه-: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" الصف: ١٣.

ختمت السورة بالدعوة إلى نصره الله

ثم ختم الله -عز وجل- هذه السورة بقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ فأيدنا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ" الصف: ١٤، الحواري هو النصير ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الزبير بن العوام أنه حوارى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعني ناصره وطاعه والمتبع لأمره ورهن إشارته، الحواريون كانوا حول عيسى -عليه السلام- يؤمنون به ويصدقونه وقد أرسلهم إلى الشام لدعوة الناس إلى الله -تبارك وتعالى-.

والله -تبارك وتعالى- يخاطب المؤمنين ها هنا ويقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ" الصف: ١٤، لما دُعوا إلى الله -عز وجل- آمنت منهم طائفة وكفرت طائفة "فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ"

الصف: ١٤، بماذا؟ بعثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- محمد "فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ"، آمنوا برسول الله فكانوا ظاهرين على من دونهم.

هذا والعلم عند الله -تعالى- وصلى اللهم وسلم وبارك على النبي محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

<http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36>